فدنت الملكة من زوجها وأمسكت يده ورَنت اليه بطَرْف ساحر وقالت — انك ستكون بلا شك قاضياً عادلاً يا سيدي وزوجي العزيز ، فلا تعاقب اللورد هنري غوفارد الشريف قبل ان تسمع دفاعه ، حتى اذا اتضحت لك براءته تعاقب الذين وشوا به

وكان كلام كاترينا قد هاج الملك شديداً ، فدفع يدها بعنف ونظر اليها نظرةً حادةً وقال بصوت كالرعد القاصف — مكانكِ ايتها الخائنة ! فلا تذكري البراءة بشفتيكِ . وقبل ان تتصدّي للمدافعة عن اللورد دافعي عن نفسكِ

فوقفت الملكة بكل عظمة وقد كبر عليها الامر ، فنظرت الى زوجها بعينين تشتعلان غيظاً وقالت له برزانة وأنفة — انك ايها الملك قد أهنتَ الان زوجتك امام هذا الجمهور من الاشراف والنبلاء واتهمتها بارتكاب جريمة الخيانة ، فأنا لا اسألك رحمةً بل اطلب منك ان تبوح بحقيقة هذه الخيانة لاثباتها او نفيها

وكانت الملكة قد ازدادت جمالاً وسناء في حالة غضبها . وفي هذه اللحظة اختلست نظرة الى طوماس سيمور فرأتهُ ينظر اليها وقد وضع يده على قبضة حسامهِ كمن يتحفز لنصرتها ، فحيَّتهُ بابتسامة خفيفة وقالت في نفسها : انهُ سيدافع عني دفاع الابطال واذا لم يُتَح له انقاذي يقتلني بسيفهِ ولا يدع احداً يحتقرني ويقودني الى سجن التوير

ولما خطر لها ذلك انتفى من ذهنها كل خوف ووقفت بهيئة المنتصر الظافر

لكنها لم ترَ هنري غوفارد ايضاً وقد وضع يده على حسامهِ ليجازف

بنفسهِ في سبيل المدافعة عنها وقد نوى ان يهجم على الملك ويقتله قبل ان يفوه بكلمة الحكم عليها

وكانت اللادي حنة دوغلاس لا ترفع بصرها عن هنري غوفارد . فلما رأتهُ يهمُّ بامتشاق حسامه ليدافع به عن محبوبته امتلأَ قلبها حزنًا وإعجابًا به في وقت واحد ، فأسرعت الى جانبه وقالت له همسًا — عُد الى رشدك ايها اللورد وارفع يدك عن حسامك ، لان الملكة تأمرك بذلك

فنظر اليها اللورد مبهوتًا ، ولكنه ترك الحسام ونظر الى الملكة مستفهمًا

وكانت الملكة قد وجَّهت خطابها ثانيةً الى الملك تطالبه بإقامة الدليل على الخيانة التي اتُّهمها بها

فقال الملك — تريدين ان اصرّح الان بالخيانة الموجهة اليكِ! فاسمعي : انهم يتهمونكِ بمبارحة مخدعكِ ليلاً ويؤكدون انكِ تقضين ساعات برمتها خارج المخدع دون ان يرافقكِ احد من الحاشية ، فتسيرين تحت غَلس الظلام في بعض الدهاليز المظلمة وتنحدرين في السلالم السرّية الى البرج المنفرد حيث تقابلين عشيقكِ على غفلة من كل رقيب ولا تعودين الى مخدعكِ الا وقد تبلّج الصباح

فذُعر هنري غوفارد لدى سماعهِ ذلك وقال في نفسهِ : اذًا هو مطّلع على كل شيء . وعاد فألقى يده على حسامه وأراد ان يدنو من الملكة . فمنعته حنة دوغلاس بقولها — مهلاً ايها اللورد فانتظر النهاية

وقالت الملكة في نفسها : لم يبقَ لي الأَ ان اعترف بقصدي من خروجي تلك الليلة من مخدعي لئلا يتهمني طوماس ايضًا بالخيانة

وكان الملك قد ارسل اليها نظرًا وحشيًا ولم يبقَ عنده ريب في خيانتها

فقال بصوت جهوري – أجيبي الآن ايتها الملكة ودافعي عن نفسكِ ان استطعتِ سبيلاً الى ذلك . يقولون انكِ منذ اسبوع في منتصف الليل بين الاثنين والثلاثاء خرجتِ من مخدعكِ وانطلقتِ سراً الى البرج المنفرد وهناك قابلتِ رجلاً يحبكِ !

فقالت الملكة بصوت يتهدّج غضباً – ويل لك ياهنري ملك انكلترا لانك تجاسرتَ ان تحتقر زوجتك بمثل هذه الصورة

– أجيبي اذاً بما يبرىء نفسكِ . فهل كنتِ في مخدعكِ طول تلك الليلة ؟

– كلاً لم اكن

فذعر الملك كأنَّ صاعقةً انقضَّت على رأسه وخرج من فيه صوت اشبه بفحيح الافعى . وكان الحضور من رجال وسيدات قد اضطربوا واصابهم ذهول شديد ووقفوا كأشباح لا حراك بها

اما الملكة فلم تضطرب ولم ترتبك ولم تسمع الا صياح الذعر خارجا من فم طوماس سيمور ولم ترَ الا نظرات الغضب والتوبيخ التي كان يوّجهها اليها . فأجابتهُ بابتسامة لطيفة تريد ان تسكّن بها ما ثار فيه من العوامل وقالت في نفسها : يجب ان أبسط الحقيقة بتمامها لابرىء نفسي امامه فقط

وكان الملك قد تجلّد وقال لها – اذاً أنتِ تعترفين بغيابكِ عن مخدعكِ تلك الليلة !

– نعم وقد قلتُ لك ذلك

فبلغ الغيظ من الملك منتهاه ، فعضّ شفته حتى أدماها وقال – وهل تعترفين بان رجلاً كان لديكِ وانكِ قد ضربتِ له موعداً تلك الليلة

فوافاكِ الى البرج وانفرد بك ؟

– نعم قد كان لديَّ رجل ولكني لم اقابلهُ في البرج المنفرد كما اني لم اقابلهُ على موعد

– قولي لي مَن هو هذا الرجل الذي كان معكِ . أجيبي . اذكري لي اسمه اذا كنتِ لا تريدين ان اخنقكِ الان بيديَّ

فابتسمت الملكة تبسُّم الازدراء وقالت – اني قد تعلَّمتُ يا ذا الجلالة ان لا ارهب الموت

فرفس الملك الارض برجله وصاح بها – اذكري لي اسم هذا الرجل !

فانتصبت الملكة بخيلاء وأجالت نظرها في وجوه الحضور برباطة جأش وقالت – ان اسم هذا الرجل الذي كان معي تلك الليلة . . .

– يوحنا هيود ! – وكان المتكلم يوحنا هيود نفسهُ وكان واقفاً بازاء عرش الملك وقد قاطع الملكة وقال – نعم ايها الملك ان اخاك المهرّج يوحنا هيود قد تشرَّف تلك الليلة بمرافقة زوجتك الشريفة في عملها المقدس وكان اقلَّ شبهاً بالملك من شَبَه الملك بالمهرّج الان

فذهل الحضور لدى سماع هذا الكلام واستلقى الملك على كرسيه وهو كمن في حلم

فقالت الملكة – والان اسمع ايها الملك لانبئك بحوادث تلك الليلة والى اين ذهبتُ سرًّا في صحبة يوحنا هيود

ثم صمتت قليلاً واستندت الى كرسيها ، وهي ترى ان جميع الابصار محدقة بها والاسماع منتبهة لتعي كل كلمة تريد ان تقولها ، وشعرت بان طوماس سيمور لا يزال حانقاً مضطرباً ، والملك في اشدّ حالات هياجه ،

ورأت ابتسامة الازدراء على وجوه جميع السيدات الحاضرات اللاتي كنَّ ساخطات عليها لانها كانت بارونة خاملة الذكر ودون اكثرهنَّ مقاماً ولكنها لم تلبث ان اصبحت ملكةً عظيمةً وصرنَ لها وصائف وخادمات. شعرت الملكة بكل ذلك وازدادت شجاعةً وجرأةً

وكانت اللادي حنة دوغلاس في اشد حالات الاضطراب والقلق، لانها خشيت ان يعرف هنري غوفارد الحقيقة ويظهر له خلاف ما كان متيقناً به فيدرك انخداعه ولا تعود تنطلي عليه حيلتها. ولذلك دنت منهُ واسرَّت اليه قائلة — لا تخشَ تغيُّر الملكة ايها اللورد، فقد تلافيتُ الخطر قبل وقوعه وأرشدتُها الى ما يدرأ عنها كل مكروه

وكان الملك ينتظر بفارغ الصبر اعتراف الملكة، فقال لها بعد قليل — ما بالكِ لا تتكلمين ؟ قولي لنا اين كنتِ تلك الليلة

فوقفت الملكة والجلال يرافق حركاتها وقالت بجرأة — سأتكلّم ايها الملك، ولكن الويل للذين اكرهوني على ذلك، لاني سأشكوهم ليس الى جلالتك فقط بل الى الديَّان العادل ايضاً ليعاقبهم على ما اقترفوه من الآثام والجرائم.. انت تسألني ان اصرّح لك بسر ذهابي مع يوحنا هيود، وكنتُ اودُّ ان تلقي عليَّ مثل هذا السؤال ونحن في خلوة وليس امام جميع هؤلاء الشهود، ولكنك لا تشاء الا ان يكون جوابي جهاراً، فاسمع يا مولاي واسمعوا ايها الشهود حقيقة الامر: اني في منتصف ليلة الثلاثاء لم اكن في مخدعي بل برحتهُ الى حيث قضيتُ واجباً مقدساً، لان فتاةً في ساعة موتها قد دعتني مستغيثةً، فلم يسعني الا تلبيتها، وهذه الفتاة هي ماري اسكيو الشهيدة

فسُرّي عن الملك لدى سماعه هذا الكلام وقال بدهشة — ماري اسكيو ؟

وردّد الجميع هذا الاسم ، وأشرق وجه طوماس سيمور ، وامتُقعت وجوه الاسقف غاردنر واللورد دوغلاس وابنتهِ حنة والمهردار رايوتشسلي وهلعت قلوبهم . . .

واستتات الملكة قائلةً — نعم فقد كنتُ تلك الليلة عند ماري اسكيو التي قضى عليها الاسقف غاردنر وذووه ليس بسبب عقيدتها بل لانها كانت محبوبة لديّ ، وهكذا أذاقوها ألوان العذاب ليصدعوا بذلك قلبي وينتقموا مني . فلما استغاثت بي بادرتُ اليها بغية ارشادها وانقاذها مما هي فيهِ من الهوان . وكان اعدائي قد سرقوا مني كتابها وأطلعوا جلالتك عليه ليغيّروا قلبك عليّ . ولكن جلالتك لم تعر وشايتهم اذناً صاغية ، فانقلب غضبهم على رأس ماري المسكينة ، وألحّوا عليك فأصدرت امرك بتعذيبها ، ولكنك امرتهم ان يسألوها اولاً اذا كانت تعود عن ضلالها وتتوب اليك

فدهش الملك وقال وهو ينظر الى وجه زوجتهِ بلطف — وكيف عرفتِ هذه الاقوال وهي من الاسرار الخفية التي لم يطلع عليها الا الذين فُوّضت اليهم ؟

قالت — متى خاب أمل الانسان من اغاثة قريبه كان الله تعالى خير معين له . فان الله قد أوحى اليّ ان اذهب الى ماري اسكيو وأحاول انقاذها ، فذهبتُ . ومع انني زوجة اعظم واشرف ملوك الارض ، بيدَ انني مع هذا لستُ الا امرأةً ضعيفة جبانة ، فخشيتُ ان اسير وحدي في

تلك الطريق المظلمة الشاقة ، وكان لا بُدَّ لي من ذراع رجل قوية أستند عليها ، فاخترتُ ان يكون رفيقي يوحنا هيود ، وأنت ادرى بمقدار اخلاصه وامانته وشدة تعلُّقِهِ بعرشك

فأطرق الملك قليلاً ثم رفع رأسه وقال — وهل كنتِ حقيقةً عند ماري اسكيو وما هي الا خاطئة مجرمة لانها أصرَّت على عنادها الى النهاية ورفضت ان تقبل عفوي ورحمتي ؟

فقالت الملكة وعيناها سابحتان بالدموع — ان ماري اسكيو يا زوجي ومولاي قد انتقلت الى عالم الابدية كقديسة لانها غفرت لاعدائها وباركت قَتَلَتها ، وهي ماثلة الان امام عرش الله وقد نالت منهُ غفران خطاياها ، فاعفُ انت ايضاً عنها ، ولتكن النيران التي التهمت جسدها امس مبدّدة للغضب العظيم الذي أثاره عليها في صدرك بعض الوشاة الذين لا يخافون الله ولا تختلج قلوبهم بعواطف الرحمة والشفقة

فقال الاسقف غاردنر وهو يكاد يختنق غيظاً — ان ماري خاطئة شريرة لانها تجاسرت ان تخالف اوامر سيدها الملك

فنظرت اليه الملكة شزراً وقالت — وهل تجسر انت يا حضرة الاسقف ان تدّعي الامانة والدقة في انفاذ امر الملك فيما يتعلق بماري اسكيو ؟ ان جلالتهُ لم يأمرك بتعذيب هذه الفتاة الى الدرجة التي بلغت اليها انت ، فقد قطَّعتَ جسمها وبترتَ اعضاءها وشوَّهتَ خلقة الله تشويهاً منكرًا ، فانا اشكوك الى الله والى سيدي الملك ، لاني ويوحنا هيود قد شهدنا كل ذلك

ولما فرغت الملكة ساد سكوت عميق كان الجميع ينتظرون فيه انفجار

بر كان غضب الملك على اعدآء الملكة ، غير ان آمالهم قد خابت لان هنري الثامن كان في تلك الساعة قد تفرّغ لزوجته بكليته ووقف عليها جميع حواسهِ ، وكان مسروراً غاية السرور لوضوح براءتها وانتصارها على اعدائها بمثل تلك الشجاعة النادرة المثال ، فالتفت اليها وقد تهلل وجههُ فرحاً وقال — وكيف جرى ذلك ايتها العزيزة ، واي طريق سلكتِ للوصول الى سجن ماري اسكيو ؟

فابتسمت الملكة وقالت — هذا السوءال يستطيع كل انسان ان يلقيهِ عليَّ خلا الملك لانه ادرى بهذه الطريق من سواه

وكان يوحنا هيود واقفاً بقرب العرش فانحنى وأسرَّ في اذن الملك كلاماً كان له احسن تأثير في نفس الملك لانه نظر على اثر ذلك الى زوجته بوجه باش وقال — تممي حديثكِ يا گاترينا وقولي لي ماذا رأيتِ في غرفة العذاب ؟

فتنهدت الملكة وقالت — اواه يا سيدي فقد رأيتُ هناك ما يعجز اللسان عن وصفه . رأيتُ المسكينة ماري اسكيو وهي بين معذّبيها تتلوّى من شدة العذاب وقد رفعت بصرها الى السماء واستسلمت الى اولئك القساة كل الاستسلام وهي تحتمل الالم بصبر دون ان تستغيث بهم او تسألهم ان يرفقوا بها مع ان اعضاءها كانت تُبتَر واحداً واحداً ويتناثر اللحم عنها الى كل جهة . وكان منظرها اذ ذاك يصدع الصخور الصماء الا قلوب معذّبيها فقد تحولت الى ما هو أقسى من الصخر . والغريب ان حضرة الاسقف غاردنر والمهردار رايوتشسلي لم يطلبا منها ان تتوب وتعود عن ضلالها لانهما خشيا ان تفلت من ايديهما . . وبعد بضع

ساعات ترك الجلادون فريستهم ليرتاحوا قليلاً ، وقد أعلن قومندان التوير ان أَجل التعذيب قد انقضى ، غير ان حضرة الاسقف ابى الا مواصلة عمله المقدس ، لان حزازات صدره لم تكن قد شُفيت ، فهجم على فريستهِ وكانت مضرَّجة بالدماء واخذ يقطع ما بقي من اعضائها ويكسرها وينثر لحمها . . آه يا سيدي الملك ارجو ان تعفيني من تتمة الحديث لاني مهما ذكرتُ لك منه فلا اظنني وافية بوصف هول تلك الساعات التي قضيتها في مشاهدة مثل ذلك ، وحسبي ان اقول اني قد امتلأتُ وقتئذٍ رعباً وانفطر قلبي التياعاً ، فعدت ادراجي الى مخدعي وانا لا اكاد اصدق بصري وسمعي

وكان الاسقف غاردنر والمهردار رايوتشسلي في اثناء هذا الحديث قد ارتعدت فرائصهما وجحظت عيونهما وخشيا ان يأمر الملك باعدامهما في الحال

غير ان الملك لم يفكر في امرهما بل كان ينظر الى زوجته بملء الإعجاب والشغف . فلما فرغت نهض فانحنى لها وقال — قد اسأتُ اليك كثيراً ايتها الملكة الشريفة وبما انني قد أهنتكِ جهاراً فانا ألتمس عفوكِ جهاراً ايضاً ولكِ الحق ان تغضبي عليَّ لِما تخالج في صدري من الارتياب بكِ ، وما انتِ الا مثال الامانة والشرف ، وها ان امانتكِ قد وضحت الان امام هذا الحشد فلم يبقَ لختام كل ذلك الا ان أنحني امامكِ ثانيةً وأتوسل اليكِ ان تصفحي لي وتعاقبيني بما تشائين

فقال يوحنا هيود مخاطباً الملكة — فوّضي اليَّ ذلك ايتها الملكة فانا أختار لهذا الخاطئ التائب العقاب الذي يستحقه لان رقة عواطفكِ تجعلكِ

ان تترددي في اختيـار العقاب اذ ليس الا للمجانين ان يعاقبوا الملوك بذنوبهم

فابتسمت الملكة وادركت ان يوحنا هيود انمـا يريد تحويل الحديث الى موضوع آخر ليصرف عنها الشجن ويبدّد ما انتاب الحضور من الافكار المؤلمة فقالت — لك ما طلبتَ يا يوحنا ، ولكن بماذا تريد ان تعاقب جلالتهُ ؟

— عقابي له ان يعترف بانني نظيره

فقال الملك — يشهد الله اننا جميعًا مجانين وحمقى ولسنا نستحق المجد الذي اختصصنا به انفسنا في نظر الناس

فقال يوحنا — وأحكم عليك يا اخي هنري ان تصغي للرواية الهزلية التي نظمها الحكيم يوحنا هيود لحفلة هذا المساء ، ففيها كل ما يسرّي الهموم ويسكّن الخواطر

— اذًا أنتَ لم تنسَ امري بهذا الشان يوم امرتُك بنظم رواية مضحكة تسرّ بها السيدات

— نعم وستسمعها الان فتطيب نفسك وتنسى كل مـا حدث هذه الليلة مما دبّره الواشون الاشرار

فقال الملك — حسن فسنسمع روايتك ايها المهرّج

ثم التفت الى الملكة وقـال — ولكني ارجو منكِ يا عزيزتي ان تسرّي نفسي باقتراح تقترحينه عليّ لاقوم به عن طيبة خاطر

قالت — ارجو منك يا سيدي ان تنسى حادثة هذه الليلة وتعفو عن الذين شكوتهم اليك فقد نالوا نصيبهم من العار

قال – انكِ شريفة وطيّبة القلب جداً يا كاترينا ، فانا اعفو عن الوشاة ولكن الويل لهم ان هم تجاسروا مرة اخرى على اتهامكِ . وهل هذا كل ما تطلبينهُ مني ايتها العزيزة ؟

فانحنت الملكة وهمست في اذن الملك قائلةً – انهم وشوا اليك بالاسقف كرانمر ايضاً وألصقوا به ما شاءت ضمائرهم الخبيثة من التهم ، وانت تعلم انه اكثر الجميع صلاحاً وامانةً ، فلا تسمع لهم يا سيدي ولا تحكم على كرانمر قبل ان تسمع كلامه

قال – ليكن لكِ ما تريدين ، وسأدعوكِ متى اجتمعتُ بكرانمر لتتأكدي صدق وعدي

ثم التفت الى يوحنا هيود وقال – اتلُ الان علينا روايتك يا يوحنا والويل لك اذا لم تكن مضحكة للغاية ، لانك لا تنجو هذه المرة من عقاب السيدات الساخطات عليك كما أُتيح لك ذلك قبلاً

ولم يمضِ الا دقائق قليلة حتى دوى الرواق الذهبي باصوات الضحك والسرور واختلطت الاصوات ونسي الجميع ما كان منذ هنيهة من الموقف الهائل ...

*

واغتنم الاسقف غاردنر واللورد دوغلاس هذه الفرصة فاختلسا انفسهما الى خارج الرواق حيث انحازا الى ناحية ووقفا يتأملان في الحالة التي صارا اليها . وقد قال غاردنر – ان الحظ قد عاندنا هذه المرة ونجت الملكة من الفخ الذي نصبناه لها ، فيجب ان نُحكم الوشاية مرةً اخرى لتكون القاضية عليها

فقال دوغلاس – لا أظنها تفلت مرة اخرى لاني قد دبرتُ لها مكيدة ليس لها منها مناص

– وما هي ؟

– اننا قد اتهمناها اليوم بالعشق كذبًا ولكننا سنتهمها غدًا صدقًا ، أفلم ترَ نظرات الحب التي كانت توجهها الى اللورد طوماس سيمور ؟

– كيف لا وانا لم افتر عن مراقبتها ، وقد تحققتُ ان عرى الوله محكمة بينهما فيجب ان نتخذ التحفظات والتدابير اللازمة لسرعة القضآء عليها لان ايام الملك اصبحت معدودة

– هذا ما سأسعى اليه بكل جهدي لان هذه المرأة قد اهانتنا اليوم اهانةً لا تُغتفر فيجب ان نترصّد منها كل فرصة للانتقام ، ولتكن غرفة العذاب التي أجادت في وصفها مأوىً رحيبًا لها ولحبيبها في القريب العاجل

– وهل تظن ان ابنتك اللادي حنة لا تزال مستعدة للعمل معنا يدًا واحدة ؟

– لا ريب في ذلك بل هي اشدُّ منا حبًا للانتقام ، فهي لا تزال تعلّل نفسها بالاقتران بالملك ، ولا يتسنى لها ذلك الا بسحق كاترينا بارّ لانها العَقَبة الوحيدة في سبيل امانيّها ، فادعُ لها ولنا ايها الاب القديس بالتوفيق والنجاح

فرفع الاسقف نظره الى السمآء وتمتم بعض كلمات وصلوات ، ثم عاد ورفيقهُ الى حيث كانا اولاً

